

## التواضع

### اللاهوت الأخلاقي - ٧

#### الميتروبوليت فيلاريت فوزنسكي

فضائل التواضع والبكاء الروحي ومحبة الحق. (التطويبات الأولى والثانية والرابعة من إنجيل متى وعلاقتها ببعضها البعض).

بحسب تعاليم الآباء القديسين والنسك وأعلام الفضيلة المسيحية، فإن أول كل الفضائل المسيحية هو التواضع. هذه هي الفضيلة التي بدونها لا يمكن اكتساب أي فضيلة أخرى، والتي بدونها لا يمكن تصور الكمال الروحي المسيحي. يبدأ المسيح المخلص وصايا التطويبات بوصية التواضع: "طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات". (متى ٥: ٣).

نحن نسمي هؤلاء الأشخاص فقراء، بالمعنى المعتاد للكلمة، الذين لا يملكون شيئاً ويطلبون عادةً المساعدة من الآخرين. (هؤلاء الفقراء ليسوا "مباركين" دائماً، إذ بينهم لصوص وسكارى ونصابون، الخ.) ولكن يجب على كل مسيحي (فقير أو غني) أن يرى نفسه فقيراً بالروح، أي أن يرى أنه لا يملك شيئاً صالحاً في نفسه. وكل صلاح فينا هو من الله. أما من أنفسنا فلا نضيف إلا الشر وحب الذات واللذات الحسية والكبرياء الخاطئ. ويجب على كل واحد منا أن يتذكر هذا. لا يقول الإنجيل المقدس عبثاً: "يقاوم الله المستكبرين، لكنه يعطي نعمة للمتواضعين" (يعقوب ٤: ٦). كما قلنا من قبل، لا توجد فضيلة أخرى ممكنة بدون التواضع، لأن أي فضيلة لا تكتمل بروح التواضع تكون بالكبرياء ضد الله. فيسقط الإنسان من بركات الله.

إلى جانب التواضع الصادق والعميق، يجب على المسيحي أن يقتني النوح الروحي، وهو ما نتحدث عنه التطويبة الثانية. من منا لا يعلم أن التواضع غالباً ما يكون سطحياً ومخادعاً في الإنسان؟ إلى ذلك، من غير العبث أن يقول المثل: "التواضع خير من الكبرياء". غالباً ما يبدو الشخص متواضعاً. لكن يتبين أنه شعور سطحي وضحل، وليس إطاراً ذهنياً عميقاً مستمراً وتجربة روحية. لقد أشار آباءنا القديسون النسك إلى طريقة يمكن من خلالها معرفة صدق التواضع وعمقه. ابدأ في توبيخ الشخص وإساءة معاملته على نفس الخطايا التي يدين نفسه عليها "بتواضع" باستخدام نفس التعابير التي يستخدمها. فإذا كان تواضعه صادقاً، فإنه يستمع إلى التوبيخ دون غضب، بل ويشعر أحياناً بالامتنان للتفسير الذي يبث التواضع. ولكن إن لم يكن ذا تواضع حقيقي، فلن يتحمل التوبيخ، بل سوف يغضب لأن كبرياءه سوف يثور في النهاية.

يقول الرب: طوبى للحزاني، فإنهم يُعزّون (متى ٥:٤). بمعنى آخر، طوبى لأولئك الذين لا يأسفون على عيوبهم فحسب، بل يبكون عليها أيضاً.

وهكذا يُفهم البكاء هنا بمعنى النوح الروحي، البكاء على الخطايا وما يتعلق بها، على الانفصال عن ملكوت السماوات. إلى جانب هذا، كثيرٌ من النساك المسيحيين، إذ كانوا ممتلئين بالمحبة والمواساة، بكوا على الآخرين على خطاياهم وسقطاتهم وعذاباتهم. بشكل عام، إن اعتبار كل المتألمين والبائسين، الذين يقبلون آلامهم بروح مسيحية وبكل تواضع وخنوع، مباركين لا يخالف روح الإنجيل المقدس. إنهم مباركون حقاً لأنهم سيتعزون بمحبة الله. ومن ناحية أخرى، فإن أولئك الذين في هذه الحياة الأرضية لا يسعون إلا للحصول على الراحة والمتعة وحسب، ليسوا مباركين. ومع أنهم يعتبرون أنفسهم محظوظين، كما يعتبر غيرهم نفسه أيضاً، فهم بحسب روح تعاليم الإنجيل المقدس أكثر الناس تعاسة. هؤلاء هم الذين حدّتهم ربنا: "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ، لِأَنَّكُمْ قَدْ نَلْتُمْ عَزَاءَكُمْ، وَيِلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَمْتَلُونَ، لِأَنَّكُمْ سَتَجُوعُونَ. وَيِلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الصَّاحِكُونَ الْآنَ، لِأَنَّكُمْ سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُونَ" (لوقا ٦: ٢٤-٢٥).

عندما يمتلئ الإنسان من التواضع والمعاناة بسبب خطاياها، فهو لا يستطيع أن يتصالح مع شر الخطيئة التي تلحق به وبالآخرين. إنه يجتهد في أن يترك فساده الخاطئ وزيف حياته المحيطة به إلى حق الله، إلى القداسة والطهارة. إنه يبحث عن حق الله ويرغب فيه وفي تغليبه على خداع الإنسان أكثر من رغبة الجائع بالأكل أو العطشان بالشرب. تتحدث التطويبة الرابعة عن هذا من جهة الوصيتين الأوليتين: طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون (متى ٥: ٦). متى يُشبعون؟ جزئياً في حياتنا الأرضية، عندما أحياناً يرى أتباع الحق الأصليون انتصار حق الله في العناية الإلهية وظهور عدل الله وقوته. إن جوعهم وعطشهم الروحي لن يُشبعوا إلا في الأبدية المباركة، في سماء جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البر (٢ بطرس ٣: ١٣).

Source: Metropolitan Philaret (Voznesensky). Moral Theology. Chapter 7: Humility. Parish Life, April 2022. St. John the Baptist Cathedral, Washington, DC. 4/1/2022. <https://orthochristian.com/145428.html>